حداثة المنهج وممانعة النص في نقد الشعر لقدامة بن جعفر

د. محجوب بلمحجوب

جامعة سعد دحلب – البليدة –الجزائر–

إنّ قارئ كتاب ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر يصاب بالدهشة والإعجاب، بقوة منطقه وجدة طرحه لما يسميه علم جيد الشعر ورديئه ذلك أنه لأول مرة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب يخرج ناقد من طراز قدامة بن جعفر (ت 337 هجري).من حلقة النقاد القدامى الذين أسسوا أحكامهم على الذوق والرواية والدربة، وأقاموا من الشعر القديم الجاهلي والإسلامي محوراً تلتقي عنده الآراء وتختلف لابد أن نسجل أن نقادنا القدامى قبل القرنين الثالث والرابع الهجريين لم تتهيأ لهم الأسباب لاصطناع منهج بين الحدود واضح المصطلح، يمكنهم من دراسة النصوص الشعرية والنثرية، والخروج بنتائج ثابتة لا تثير الجدل والتناقض.و بنظرة سريعة في مصادر النقد القديم من فحولة الشعر، للأصمعي وقواعد الشعر (لثعلب)، وطبقات فحول الشعراء (لابن سلام)، والشعر والشعراء (لابن قتيبة)، والبيان والتبيين (للجاحظ)، والكامل (للمبرد)، وغيرها من المصادر تؤكد حكمنا من خلو هذه المؤلفات من المعالجة الفنية القائمة على منهج واضح المعالم، و مصطلحات ثابتة الدلالة أما القرنان الثالث والرابع الهجريين فقد عرفا حركة ترجمة واسعة

للعلوم والفنون والفلسفة والمنطق، وشكلت روافد للفكر الإنساني في شتى أصناف المعارف، وازدهرت الحياة العقلية والفكرية، و كانت سبباً في نشأة طبقة من المثقفين الذين تثقفوا على الفكر الإنساني، وكان في مقدمتهم المعتزلة الذين رجعوا إلى المنطق اليوناني، وقرأوا فلسفة أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان، وترجموا آراء الأمم الأخرى في البيان ومناهجه، كما ترجموا كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية[1].

وفي هذا المناخ من تنوع الثقافات وازدهار الفكر، نشأ قدامة بن جعفر، وكان أول من أعطى مفهوماً جديداً لفهم الشعر، ومنهجاً جديداً لتمييز الجيد والردئ، يقوم على قواعد من المنطق والحدود والتعريفات.

وقد مزج بين الثقافة اليونانية والثقافة العربية، الأمر الذي أتاح له وضع نظرية لتمييز الجيد من الردئ أقرب إلى العلم وموضوعيته فقد حرص على تعليم النقد، ((وأن يكون علمه قائماً على منطق لا يختل))[2] إن خطورة منهج قدامة تتمثل في تعامله بالمنطق مع فن هو نقيض المنطق (فن الشعر وطبيعته)، فمن شأن المنطق التعاطي مع الأفكار والمعاني العقلية، وتحديد الصواب والخطأ فيها، لكن التعاطي مع المشاعر والأحاسيس فأمر يستعصي على المنطق ومن هنا جاءت

---

[1] مقدمة نقد الشعر بتحقيق محمد عبد النعم خفاجي ص 8

[2] إحسان عباس تاريخ النقد عند العرب ص 194

المفارقة في منهج قدامة النقدي يقول محمد خفاجي في مقدمة تحقيق نقد الشعر ((و إن هذا المنهج الذي وضع قدامة أساسه يعد أكبر وأجرأ خطوة نحو تدوين البلاغة العربية وأصول البيان والنقد.و حسبنا أن ثلاثة من كبار البلاغيين قد أولوا منهجه عناية خاصة، و تأثروا به تأثراً عميقاًهم:

1-أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) في كتابه: الصناعتين.

2-ابن رشيق القيرواني (ت456 هـ) في كتابه:العمدة.

3-ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) في كتابه سر الفصاحة))[1]

ولم يقف أثر كتاب نقد الشعر عند هؤلاء الثلاثة بل امتدت أثاره إلى أجيال كثيرة بعده، وتفاوتت درجة التأثر من ناقد إلى أخر، وحسبه أن أثره وصل إلى القرن السابع الهجري في كتاب المنهاج لحازم القرطاجني. يقوم كتاب نقد الشعر على مقدمة وثلاثة فصول، تحدث فيها عن علم جيد الشعر ورديئه انطلاقاً من تحديد العناصر الأولية المكونة للشعر وهي: اللفظ، المعنى، الوزن، القافية. وتتمركز نظريته النقدية على ثوابت يعضدها المنطق من حيث عدَّ الشعر صناعة، التي يهتم الصانع فيها ببلوغ غاية التجويد والكمال فيها، و يخضع كل شئ فيها لعنصري الجودة والرداءة وبمعرفة ما يتصل بهذين العنصرين من أسباب الجودة، وأسباب الرداءة في عناصر الشعر الأساسية، (اللفظ، المعنى، الوزن، القافية) إن كل

---

[1] مقدمة المحقق ص 8-9

عنصر من هذه العناصر يتميز بصفتين الجودة والرداءة، في حال الإفراد وفي حال الائتلاف فيما بينهما، كما ستبينه صفحات البحث الآتية.

وكما حدد لعناصر الشعر صفات الحسن وصفات القبح، لم يفته أن يقوم بإجراء المعاني، وأغراض الشعر المختلفة بالكيفية نفسها، وإذا كان الشعر إنما هو ما ائتلف من هذه العناصر (اللفظ والمعنى)، (الوزن والقافية)، ...الخ. فليس ما كانت هذه سبيله أن يكون جيداً دائماً، ولا رديئا دائما، وإنما يتعاقبه الأمران مرة هذه، ومرة هذه حسب ما يتفقون على قدر ما يؤتى صاحب الصناعة من قوة في صناعته يكون قربه من صفة الشاعر الحاذق أو بعده عنهاكما سيأتي

و حتى نتبين منهج قدامة في نقد الشعر نسجل الآتي:

1- بدأ بتعريف الشعر:هو قول موزون مقفى يدل على معنى—نقد ص64-

ومن الأسباب المكونة للشعر ينطلق ليتحدث عنها في حال الإفراد، وهي (اللفظ، المعنى، الوزن، القافية) ليقرر ما يلحقها من صفات الجودة، وصفات الرداءة. (كما سيأتي).

بعدها ينتقل إلى الحديث عن هذه الأسباب المفردة، حين تأتلف فيما بينها، (اللفظ مع المعنى، اللفظ مع الوزن، المعنى مع القافية)، ونتيجة الائتلاف نحصل على أربعة مركبات، التي نستطيع من خلالها تحديد الجودة والرداءة

و في باب المعاني الدال عليها الشعر، نميز بين قسمين من معاني الشعر:

1- جودة المعاني التي تتصل بأغراض الشعر

2- جودة المعاني التي تتصل بتقديم المعاني تقديماً أمثل

1- أما المعاني المتصلة بأغراض الشعر فقد جعلها في الأعلام من أغراض الشعراء، وهي المديح، الهجاء، النسيب، المراثي، والوصف، والتشبيه.و لما كانت هذه الأغراض تتصل بالإنسان، وأنه لو استثنينا غرض الوصف وهو موضوع مشترك بين الناس والأشياء، فإن الأربعة الأولى ليست إلا منحاً للصفات أو سلباً لها، وهي ما يطلق عليها فضائل النفس الكبرى عند أفلاطون: (العقل، و الشجاعة، والعدل، والعفة) –نقد ص 96- فإذا رجعنا إلى أغراض الشعر المحورية نجدها لا تخرج في جملتها عن الفضائل المأثورة لذلك كان الممدوح بهذه الخصال الأربع مصيباً، والمادح بغيرها مخطئاً–نقد ص96- ووجب أن يمدح بهذه الصفات حتى يحقق غاية الجودة وقد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها ببعض، والإغراق فيه دون بعض. فلا يسمى مخطئاً، لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله، وكمال المديح يكون باشتماله على الصفات الأربع–نقد ص96-

2- الهجاء: ضد المديح، فكلما كثرت أضداد المديح، كان أحسن.-نقد ص 113 – وقد تحمل المعاني في الهجاء، وقد يفرط الشاعر في ذكر نقيصة واحدة

3- الرثاء: ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل: كان، و تولى، وقضى نحبه، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح في حياته.-نقد ص118-

4- التشبيه: إنما يقع التشبيه بين شيئين بينهما اشتراك في معان تجمعهما، ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها، فأحسن التشبيه هو ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى إلى حال الإتحاد.- نقد ص 124-

5- جودة الوصف: هو ذكر الشئ بما فيه من الأحوال والهيئات – نقد ص 130- ويحسن الوصف كلما أكثر الشاعر من المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه، وأولاها حتى يحكيه بشعره، ويمثله للحسن بنعته—نقد ص 130-

6- النسيب: هو ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى معهن.أما الفرق بين النسيب والغزل، فهو أن الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله فكأن النسيب ذكر الغزل، و الغزل المعنى نفسه نقد ص 134-

2- جودة المعاني التي تتصل بالتقديم الأمثل للمعاني: ومن أقسام الجودة التي تلحق هذا الجانب:

1- صحة التقسيم، صحة المقابلات، صحة التفسير، التتميم، المبالغة، التكافؤ، الإلتفات. وأضداد هذه الصفات هي العيوب التي تلحق المعاني. وكما حدد قدامة صفات الجودة في المعاني، مفردة، حدد صفات الرداءة، وكذلك فعل مع المعاني في ائتلافها مع الأسباب المفردة.

وتماشيا مع منطق الشعر عند قدامة، أبعد فن الشعر عن معايير الأخلاق، وذلك عندما اعتبر الشعر صناعة كباقي الصناعات، يتوخى فيها من الصانع بلوغ غاية الجودة والكمال إذ كانت المعاني بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة، وتكون الغاية في فهم قدامة تحقيق الجمال في الصورة الشعرية، بصرف النظر عن جودتها في ذاتها أو رداءتها ومن ثمة أطلق يد الشاعر في أن يتناول ما شاء من المعاني دون أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه (من الرفعة والضعة، والنزاهة، والبذخ، والقناعة، والمدح والهجاء وغيرها من المعاني المفيدة أو الذميمة نقد ص66 وعليه إذا شرع في معنى من المعاني أن يتوخى البلوغ من التجويد إلى الغاية المطلوبة نقد ص66 ومن هذا المنطلق يمكن للشاعر أن يناقض نفسه في قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئا وصفاً حسناً، ثم يذمه بعد ذلك ذماً حسناً، غير منكر

عليه، ولا معيب من فعله نقد66 إذ كان مدار الأمر على التجويد والمهارة في تقديم المعاني بصورة جميلة بديعة.

غير أنه حين يذكر بعض الأمثلة في الفضائل يقيد الشاعر بحدود تجعله لا يحقق الغاية (مثلاً التشبيه، الغزل، الهجاء، وغيرها) يضاف إلى هذا أنه يذكر أن أجود الشعر أكذبه، وأن الغلو في الشعر أجود المذهبين، فقد نقل عن سابقيه أنهم مختلفون في مذهبين شعريين الغلو في المعاني، ولزوم الحد الأوسط قال: إن الغلو عندي أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه، وكذا نرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم، — نقد ص94- ومنطق قدامة في فهم الغلو وتفضيله على لزوم الحد الأوسط، لأن الذين ذهبوا إلى الغلو، إنما أرادوا به المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم فإنما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت، وهذا أحسن من المذهب الآخر—نقد ص94.

ومع هذا وجدناه يطالب الشاعر بعدم الخروج على ما جرت به العادة، وأقامه العرف الاجتماعي (مثال ذلك وقوفه عند شعر حسان) لنا الجفنات الغر... وقبل أن يصل إلى عرض فصول الكتاب نورد قولاً لإحسان عباس في كتابه تاريخ النقد عند العرب جاء فيه: إن الصفات الإيجابية التي وصفها قدامة للمعاني لا تميز الشعر بشيء، وبقي هذا الشعر بحاجة إلى استنباط خصائص أخرى،

وإلى بناء "منطق شعري" غير المنطق العام الذي بناه قدامة ولا نستبعد وجود شعر يخلو من كل هذه الخصائص الإيجابية، ويظل مع ذلك في نظرنا شعراً جميلاً مؤثراً" [1] يفهم من هذا أن التركيز على نماذج شعرية بأعيانها والتي تحقق لها جانب من الصفات الإيجابية، لا تشكل إنجازاً كبيراً إذ كان الشعر لا يستجيب لقواعد المنطق وحدودها إن محاولة قدامة وضع قواعد عامة تحكم الشعر من حيث جودته ورداءته، لم تحقق الهدف من وضعها بشكل كبير، بل يمكن القول: إن ما خرج على هذه القاعدة من الشعر أكثر مما انضوى تحتها.

ولو قدمنا لقدامة ضروباً من أمثلة الشعر تتجاوز النماذج التي جاء بها كماً ونوعاً كالفرار في الحرب، والهجاء القائم على السخرية، والرثاء الوجداني الخالص، دون تعداد المناقب والتحسر على الشباب.. وغيرها لوسع من حدود النظرية والمصطلح[2] والحال إن نظرية قدامة النقدية لا تستطيع إلا تناول الواقع الشعري دون غيره من المستويات، ومثل هذا النقد، يستطيع أن يتمرس بالحقائق التي يقبلها العقل في الشعر، ويؤثر التقرير والوضوح، والحسم الفاصل، والصحة المتميزة وهل يمكننا إلا أن نقول إن قدامة آمن بثبات القيم

---

[1] إحسان عباس: تاريخ النقد عند العرب ص 205

[2] المصدر نفسه ص206

في الشعر، من حيث الكم والكيف، غير أن طبيعة الشعر والفنون جملة لا تعترف بهذه الحدود.

الفصل الأول:

1- تحدث فيه قدامة حديثاً موجزاً مركزاً أشار فيه إلى عناية القدماء بأقسام الشعر المختلفة وقد جعلها خمسة، فقسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته، وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد به وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه وقد عنى الناس بوضع الكتب في القسم الأول وما يليه إلى الرابع عناية تامة.. ولم أجد أحدا وضع في "نقد الشعر" وتخليص جيده من رديئه كتاباً، وكان الكلام عندي في القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة —نقد ص61- ولأن قدامة وجد من تقدمه قصر في الكلام عن علم جيد الشعر من رديئه، فكان هذا حافزاً له لتأليف هذا الكتاب " لأن الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلوم، فقليلاً ما يصيبون " — نقد ص 62-

2- ثم عرج إلى الشعر يعرفه بعبارة موجزة دقيقة فيقول:" وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه، إنه قول موزون مقفى يدل على معنى " — نقد ص64 وعلى طريقة أهل النظر في المنطق يأخذ في شرح أقسام هذا التعريف فيبين معنى قول، ومعنى قول موزون، ومعنى دال على

معنى، ثم يخلص إلى النتيجة الآتية " فلو أراد مريد أن يعمل من ذلك شيئا على هذه، الجهة لأمكنه وما تعذر عليه " – نقد ص64–، وإذ كان الشعر يعمل على هذه الطريقة " فليس من الإضطرار إذاً أن يكون ما هذه سبيله جيداً أبداً ولا رديئاً أبداً، بل يحتمل أن يتعاقبه الأمران مرة هذه وأخرى هذه على حسب ما يتفق –نقد ص64–

3– ولما كان الشعر يقع مرة جيداً ومرة رديئاً، وجب معرفة الجيد فيه، وتمييزه من الردئ ثم ينتقل إلى فن الشعر فيجعله صناعة حتى يقف على حدود الجمال والقبح في هذه الصناعة، لأن الغرض من كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها علي غاية، التجويد والكمال، فيكون في كل صناعة تبعاً لذلك قطبان: قطب غاية الجودة، وقطب غاية الرداءة وما يقع بينهما يسمى الوسائط.

"وكان كل قاصد لشئ من ذلك فإنما يقصد الطرف الأجود، فإن كان معه من القوة في الصناعة ما يبلغه إياه سمي حاذقاً تام الحذق، فإن قصرعن ذلك نزل له اسم بحسب الموضع الذي يبلغه في القرب من تلك الغاية والبعد عنها – نقد ص 64–65.

صفات الشعر الذي إذا اجتمعت فيه كان في غاية الجودة:

وهو يعد بذكر أسباب الجودة وأحوالها وأعداد أجناسها، ليكون ما يوجد من الشعر الذي اجتمعت فيه الأوصاف المحمودة كلها، وخلا من الخلال المذمومة بأسرها يسمى شعراً في غاية الجودة، وما يوجد بضد هذه الحال يسمى شعراً في غاية الرداءة، وما يجتمع فيه من

الحالين أسباب يترل له اسم بحسب قربه من الجيد أو من الرديء أووقوعه في الوسط– نقد ص65-

4- حرية الشاعر في اختيار موضوعاته:

وإذ يقر قدامة أن الشعر صناعة وأن غاية الصانع إجراء ما يصنع ويعمل على غاية التجويد والكمال، فقد أطلق يد الشاعر في تناول موضوعاته و لم يحظر عليه معنى يريد الشاعر الكلام فيه ذلك لأنه يعتبر أن المعاني للشعر بمترلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة، وهي طريق يظهر من خلالها الصانع براعته ومهارته في صناعته، شأنه شأن النجار في صناعته، والصائغ في صياغته للمعادن الثمينة، إذ قيمة الصناعة في ما يتشكل منها من صور وأشكال بديعة جميلة، لا في ذاتها وبهذه الكيفية أبعد قدامة المعايير الأخلاقية عن الفن، وأصبح بإمكان الشاعر تناول المعاني الأخلاقية وغير الأخلاقية دون أن يعاب عليه أو ينكر ذلك من فعله وإذ كانت العبرة ببلوغ غاية التجويد فإن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين تصبح ممكنة شريطة أن يجيد الشاعر إذا مدح، و إذا ذم فإن ذلك يدل على قوة الصناعة عند الشاعر واقتداره عليها

5- مكونات الشعر:

لما كان الشعر مؤلفاً من العناصر الأربعة اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وهي العناصر المكونة للشعر "وجب أن يكون الشعر أيضاً لما كان مجتمعاً من أسباب أن تكون أقسام تأليف هذه الأسباب

بعضها إلى بعض جارياً هذا المجرى" –نقد ص 69– وإنه لما كانت الأسباب المفردات التي يحيط بها حد الشعر على ما قدمنا القول فيه أربعة، وهي: اللفظ، والمعنى، والوزن، والتقفية.. إلا أني وجدت اللفظ والمعنى والوزن تأتلف، فيحدث من ائتلافها بعضها إلى بعض معان يتكلم فيها "– نقد ص69– وبانضمام هذه العناصر بعضها إلى بعض أصبح لدينا الإئتلافات الآتية:

1– ائتلاف اللفظ مع المعنى 2– ائتلاف اللفظ مع الوزن

3– ائتلاف المعنى مع الوزن 4– ائتلاف المعنى مع القافية

"وصارت أجناس الشعر ثمانية، وهي الأربعة، المفردات، البسائط التي يدل عليها حده، والأربعة المؤلفات منها– نقد ص 70–.

وبما أن لهذه العناصر الثمانية صفات تمدح بها، وأحوال تعاب من أجلها، "وجب أن يكون جيد ذلك ورديئه لا حقين للشعر إذ كان ليس يخرج شيء منه عنها"– نقد ص 70– ثم يبدأ في الحديث عن أوصاف الجودة في كل واحد منها، ليكون مجموع ذلك إذا اجتمع للشعر كان في نهاية الجودة، وإذا لم يكن فيه شيء منها كان في نهاية الرداءة لا محالة، إذ كان هذان الطرفان مشتملين على جميع النعوت أو العيوب التي نذكرها –نقد ص 70–.

وإذ كان الشعر فيه جميع النعوت أو العيوب، وجب أن تكون الوسائط التي بين المدح والذم تشتمل على صفات محمودة، وصفات مذمومة فما كان فيه من النعوت أكثر كان إلى الجودة أميل، وما

كان فيه من العيوب أكثر كان إلى الرداءة أقرب، ومن تكافأت فيه النعوت والعيوب كان وسطا بين المدح والذم – نقد ص71 –.

– **الفصل الثاني:**

1– تحدث قدامة في هذا الفصل عن نعوت العناصر المكونة للشعر وهي اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية، في حال الإفراد، ويذكر نعوتها حين تأتلف فيما بينها:

– نعت اللفظ: أن يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة، – نقد ص74 نحو قول الشاعر – نقد ص 75، 77–.

فلما قضينا غصةً من عتابنـــا وقد فاض من بعد العتاب المدامع
جرى بيننا منا رسيس يزيدنـا سقاما إذا ما استيقنته المسامـع[1]
قليلاً وكان الليل في ذاك ساعة وقمن ومعروف من الصبح صادع

وقول كثير:

ولما قضينا من منى كـــل حاجـة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــا وسالت بأعناق المطي الأباطح.

وهذه الأبيات كما هو واضح سهلة مخارج الحروف من مواضعها، عذبة الألفاظ خالية من عيوب الوحشة والبشاعة

– نعت الوزن: أن يكون سهل العروض من أشعار يوجد فيها وإن خلت من أكثر نعوت الشعر نحو قول الشاعر: –نقد ص 79–.

رب خالٍ لي لو أبصرتـه سبط المشية آباء أنـــف
لين الجانب في أقربـــه وعلى الأعداء سم كالزعف

ومن نعوت الوزن، الترصيع، وهو أن يتوخى فيه تغيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف، كما يوجد ذلك في أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول، وفي أشعار المحدثين المحسنين — نقد ص80- نحو قول امرئ القيس:

مِخش مِجَشّ مقبل مدبر معاً كتيس ظباء الخلب العَدَوَان[2]

فأتى باللفظتين الأوليتين مسجوعتين في تصريف واحد وبالتاليتين لهما شبيهتان بهما في التصريف— نقد ص 80-.

-والترصيع حلية الكلام إذا جاء في مواضعه، ولكن إذا اتصل وتواتر في الأبيات كلها فليس بمحمود ودل على التكلف.

- نعت القوافي: أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج، وأن تقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها فإن الفحول المجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك، ولا يكادون يعدلون عنه نحو قول امرئ القيس: - نقد ص86 -.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ثم أتى بعد هذا البيت بأبيات فقال :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

ثم أتى بأبيات بعد هذا البيت فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلـي بصبح وما إلا صباح منك بأمثـل

وهذه طريقة الفحول من الشعراء المطبوعين المجيدين، ذلك لأن بنية الشعر إنما هي التسجيع والتقفية، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالا عليه كان أدخل له في باب الشعر وأخرج له عن مذهب النثر – نقد ص90- يقود مثل هذا القول إلى اعتبار الشعر ما اشتمل على الأسجاع الكثيرة، وهذا جانب موسيقي خارجي للنص أوالقصيدة، يصرف النظر عن المعنى أو المعاناة عند الشاعر وأن بنية الشعر تقتضي الإكثار من الأسجاع والتقفية والتصريفات.

- جودة المعاني: رأينا من خلال ما سبق أن الجودة في الشعر تنصرف إلى الصورة دون المعنى، غير أن قدامة لم يفته أن الصورة هي تقديم المعنى وتشكيله، وأنه يدخل في الصورة الكيفية التي تتناول بها المعاني وتتوزع الجودة الخاصة بالمعاني على اتجاهين:

1- جودة المعاني من جهة صلتها بالأغراض الشعرية.

2- جودة المعاني من جهة التقديم الأمثل لها.

1- جودة المعاني من جهة صلتها بالأغراض الشعرية:

أ- جودة المديح: يعتمد قدامة مقالة عمر بن الخطاب في زهير حيث قال:

إنه لم يكن يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال، وعليه فلا يمدح الرجال إلا بما لهم وفيهم وأن يمدح الرجال بأربع فضائل هي: إنه لما كانت فضائل الناس، من حيث إنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، إنما هي: العقل، والشجاعة،

والعدل، والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع مصيبا، والمادح بغيرها مخطئاً– نقد ص96-

1- الرسيس: أول الحب، الصادع: ظاهر، مشرق

2- المخش: الجريء الماضي، مخش: غليظ الصوت، فحل الظباء، الخلب: نبتة تأكلها الوحوش تضمر عليها بطونهاالعدوان: الشديد الجريء

و هكذا حدد معايير يمدح بها الرجال، والمدح بغيرها تقصير وخطأ، ويمكن للشاعر استعمال صفة من هذه الصفات في مدحه، ولكن الإتيان على الصفات الأربع في المديح خير وأولى، ومن الأشعار التي اجتمعت فيها الخلال الأربع قول زهير:

أخي ثقةٍ لا تهلك الخمر مالـــــه ولكنه قد يهلك المال نائلـــه

تراه إذا ما جئتـــه متهـــــللا كأنـــك معطيه ما أنت سائلـــه

فمن مثل حصن في الخروب ومثله لإنكار ضيم أو لخصم يجادلـــه

-فوصفه في البيت الأول بالعفة، لقلة إمعانه في اللذات، ثم زاد في البيت الثاني في وصف السخاء بأن جعله يهش له، ولا يلحقه مضض، ولا تكره لفعله ثم أتى في البيت الثالث بالوصف من جهة الشجاعة والعقل، " فاستوعب زهير في أبياته هذه المديح بالأربع الخصال التي هي فضائل الإنسان على الحقيقة" – نقد ص 97- وتتفرع عن هذه الخلال أقسام كثيرة، ويكون المدح تبعاً لأصناف الممدوحين؛ فلمدح الملوك معان، ولمدح ذوي الصناعات معان؛ ولمدح القواد معان؛ ولمدح السوقة معان.

- نعت الهجاء: الهجاء ضد المديح فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له - نقد ص 113، 114- ومن خبيث الهجاء قول الشاعر:

إن يغدروا أو يفجروا أو يبخلوا يغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا

وعلق قدامة عليه بالقول: "فمن جودة هذا الهجاء أن الشاعر به تعمد أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم، لأن الغدر ضد الوفاء، والفجور ضد الصدق، والبخل ضد الجود، ثم أتى بعد ذلك بضد أجل الفضائل وهو العقل، حيث قال: وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا "- نقدص114-

- نعت الرثاء: " ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك، مثل: كان، وتولى، وقضى نحبه، وما أشبه ذلك- نقدص118- لأنه يجد أن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته" -ص118-

وأنه لا فضل بين المديح والتأبين إلا في اللفظ دون المعنى - نقد ص119-

وذلك من نحو قول الشاعر يرثي فضالة:

أيتها النفس أجملي جزعـــاً إن الذي تحذرين قـــد وقعـــا

إن الـــذي جمع السماحـــة والنجدة وإلباس والندى جمعا

الألمعي الذي يظن بك الظن كـــأن قد رأى وقد سمعـــــا

وعلق عليه بالقول: "فقد جمع في هذه المرثية جميع الفضائل، ووضع الشيء من ذلك مواضعه - نقد ص122-

– جودة التشبيه: التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما، ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها– نقد ص124–

وأحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من إنفرادهما فيها، حتى يدني بهما إلى حال الإتحاد.– نقد ص124– ومن التصرفات التي تحسن التشبيه:

1– جمع التشبيهات الكثيرة في بيت واحد وألفاظ يسيرة كقول امرئ القيس :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

2– تشبيه شيء واحد بأشياء في بيت أو تعبير قصير.

3– تشبيه شيء في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلك الأحوال.

4– سلوك الشاعر في تشبيه شيء بشيء مذهباً جديداً لم يقع للشعراء من قبل. هذه التشبيهات مما وقع للشعراء المطبوعين المجيدين من القدماء والمحدثين، وفيها إتباع لسنة الشعراء في نموذج شعرهم المأثور.

5– جودة الوصف: الوصف إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات. وأجود الوصف من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه وأولاها، حتى يحكيه بشعره ويمثله للحسن بنعته– نقد ص 130–

6– جودة النسيب: النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن–نقد ص 134– والفارق بين النسيب والغزل، أن الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى

النساء نسب بهن من أجله، فكأن النسيب ذكر الغزل، والغزل المعنى نفسه نقد ص134- والغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء.- نقد ص134-وخير النسيب ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة، وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز- ص134- ومن جيد الغزل قول أبي صخر الهذلي: - نقد ص137-

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحياء والذي أمره الأمـــر
لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها بتاتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أرها فجـــــاءةً فأبهت لا عرف لديّ ولا نكـــر
أنسى الذي كنت فيه هجرهـــا كما تنسي لـــب شاربها الخمـــر

ونحو قول الشاعر:

يود أن يمسي سقيما لعلّهـــا إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلى لتحد يوما عند ليلى شمائلـــه

ما يستجاد من هذه الأبيات وصف الشاعر لواعج الحبلا اعتقاده إذ كان الشعر إنما هو قول، وإذا أجاد فيه القائل لم يطالب الإعتقاد- نقد ص 138-

ب- جودة المعاني من جهة التقديم الأمثل لها:

- ومن صفات الجودة:

1-صحة التقسيم: وتعني استيفاء أقسام الشيء مثال ذلك قول الشاعر:

فقال فريق القوم لا وفريقهم نعم وفريق قال ويحك لا أدري

فقد استوفى أقسام جاب المجيب عن الاستخبار.

2- صحة المقابلة: وهي أن يأتي الشاعر بمعنيين أو أكثر ثم يأتي بما يوافق كلا منها على سبيل المقابلة الصحيحة نحو قول الشاعر :

وإذا حديث ساءني لم أكتئب وإذا حديثاً سرني لم أشر.

فقد جعل بإزاء الاكتئاب الأثر، وهذه المعاني غاية في التقابل.-نقد ص141-

3- صحة التفسير: وهي أن يأتي الشاعر بمعان تستدعي التفسير فيأتي بمعان تفسرها تفسيراً صحيحاً دون زيادة أو نقصان.

- جودة ائتلاف المعنى مع الوزن: [1] أن تكون المعاني تامة مستوفاة لم تضطر بإقامة الوزن إلى نقصها عن الواجب ولا إلى الزيادة فيها.

2- أن تكون المعاني في صلب الغرض الذي أراده الشاعر و لم تجتلبها الضرورة

- الجودة في ائتلاف القافية مع دلالة سائر البيت :

وأساس الجودة هنا أن معنى البيت هو الذي استدعى القافية وطلبهاومن صور الجودة هنا:

1- التو شيح: هو أن يقتضي مطلع البيت آخره وقافيته.

2- الإيغال: هو أن يأتي الشاعر بالمعنى تاماً قبل بلوغ القافية، ثم يأتي بالقافية وقد زاد معناها في جودة معنى البيت.

8- الرداءة في الأسباب الأربعة المكونة للشعر:

- رداءة اللفظ: أن يكون اللفظ ملحوناً غير جار على سبيل الإعراب واللغةوأن يكون شاذاً أو وحشياً قليل الاستعمال وقد مدح الفاروق زهيراً لمجانبته له وتنكبه إياه فقال: كان لا يتتبع حوشي الكلام.

ومن عيوب اللفظ المعاظلة: وهي أن يدخل الشاعر في كلامه ما ليس من جنسه وما هو غير لائق به.

- رداءة الوزن: من عيوبه "التخليع"، وهو أن تكثر الزحافات في القصيدة كلها إلى حد يفقدها رواء الشعر ورونقه، يقول قدامة: "فما جرى من التزحيف في القصيدة أو الأبيات كلها أو أكثرها كان قبيحاً من أجل إفراطه في التخليع واحدة، ثم من أجل دوامه وكثرته ثانية." - نقد ص179-

رداءة القوافي:

1- التجميع: وهو أن تكون قافية الصدر في البيت الأول على روي ينبئ بأن تكون قافية العجز موافقة له، فتأتي مخالفة له.

2- الإقواء: هو أن تأتي قافية البيت مرفوعة وأخرى مخفوضة مثلاً.

3- الإيطاء: وهو أن تتفق قافيتان في قصيدة واحدة لفظاً ومعنى.

4- السناد: هو أن يختلف تصريف القافيتين وهو من قولهم خرج بنو فلان برأسين متساندين (مختلفين)– نقد ص138–

– عيوب المعاني:

1- في الأغراض الشعرية 2- في تقديم المعنى.

1- رداءة المديح: وأظهر صورها المدح بغير الفضائل النفسية التي هي ميزة للإنسان.

2- رداءة الهجاء: وأظهر صورها سلب المهجو أموراً لا تجانس الفضائل النفسية، كأن يقال: هو قبيح الوجه، أو صغير الحجم، أو ضئيل الجسم، أو من قوم ليسوا بأشراف " إذا كانت أفعاله في نفسه جميلة، و خصاله كريمة نبيلة، أو أن يكون أبواه مخطئين إذا كان مصيباً، أو غويين إذا كان رشيداً، أو بقلة العدد إذا كان كريماً.–نقد ص187–. وذلك من مثل قول الشاعر:–نقد ص187–

رأت نصف أسفار أميمـــــة قاعـــداً على نصف أسفار يجنُ جنوبُها
فقالت: من أي الناس أنـــت أتيتنـــا فإنك راعٍي ثِلّة لا ترينَهـــــا
فقلت لها: ليس الشحوب على الفتى بعار ولا خيرُ الرجال سمينُها

3- رداءة الرثاء: هي ما ناقض صفات المدح الجيدة

4- رداءة التشبيه: وهو بضد ما جاء في صفات الجودة.

5- رداءة الوصف: وتكون بالمضادة لما جاء في صفات الجودة

6- رداءة النسيب: وتعرف بمجيئها مضادة لصفات الجودة

2- رداءة المعاني من جهة تقديمها:

- فساد الأقسام: أ- أن يأتي الشاعر بأقسام مكررة.

ب-،أن يأتي بقسمين يدخل أحدهما تحت الآخر الآن أو فيما بعد.

ج- أن يذكر عدداً من الأقسام، وعند التفصيل يدع بعضها.

-فساد المقابلات:هو أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بآخر إما على جهة الموافقة أو المخالفة، فيكون أحد المعنيين لا يخالف الآخر، أو يوافقه—نقد ص193-.

- فساد التفسير: يفهم من جودة التفسير.

- الإستحالة والتناقض: هو أن يذكر في الشعر شيء فيجمع بينه وبين المقابل له من جهة واحدة وينجم عنها أيضاً:

- إيقاع الممتنع: وهو أن يأتي الشاعر بأمر لا يكون لكن الوهم يمكن أن يتصور كونه

-مخالفة العرف: وهي أن يأتي الشاعر بأمر لا تقره العادة ولا العرف وطبيعة الأشياء

- نسب الشيء إلى ما ليس منه: وهو أن ينسب الشاعر صفة أو معنى إلى شيء لا يكونان له.

- الرداءة في الأسباب الأربعة المؤلفة:

-رداءة إئتلاف اللفظ والمعنى: وأظهر صورها الإخلال، وهو أن ينقص الشاعر من اللفظ ما به تمام المعنى، أو يزيد فيه ما به فساد المعنى

- رداءة إئتلاف اللفظ والوزن:

1- الحشو: وهو أن يحشى بلفظ لا يحتاج إليه لإقامة الوزن

2- التثليم: وهو أن يأتي الشاعر بأشياء يقصر عنها العروض فيضطر إلى ثلمها والنقص منها —نقد ص 206-

3- التذنيب: وهو أن يأتي الشاعر بألفاظ تقصر عن الوزن فيضطر إلى الزيادة فيها.

4- التغيير: هو أن يغير الشاعر الإسم من صورة إلى صورة اضطره إليها الوزن.

5- التعطيل: وهو أن لا ينتظم نسق الكلام على ما ينبغي لمكان العروض فيقدم ويؤخر

6- عيوب ائتلاف المعنى والوزن: ومظاهره في:

1- المقلوب: هو ان يضطر الوزن الشاعر إلى إحالة المعنى وقلبه إلى خلاف ما قصد به.

2- المبتور: هو أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامه في بيت واحد فيقطعه بالقافية ويتمه في البيت الثانيوهو ما عرف في النقد القديم بالتضمين.

3- رداءة ائتلاف المعنى والقافية:

أن تكون القافية متكلفة قد فرضت نفسها على الشاعر دون أن يطلبها المعنى

مصادر البحث ومراجعه

1- نقد الشعر: قدامة بن جعفر تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي.

دار الكتب العلمية/ بيروت لبنان.د ت.ولا.ط.

2- العمدة لابن رشيق القيرواني:

تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.ط 5 دار الجيل، بيروت – لبنان 1981

3-مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمان بن محمد بن خلدوند.ط.المكتبة العصرية، بيروت 2005

4- تاريخ النقد عند العرب:إحسان عباس ط3 دار الثقافة بيروت 1981.

5- التفكير النقدي عند العرب: عيسى علي العاكوب ط1 دار الفكر دمشق 1997.

6- النقد المنهجي عند العرب: د.محمد مندور د ط مطبعة نهضت مصر القاهرة 1972

7- مفهوم الشعرية في النقد القديم: محجوب بالمحجوب رسالة ودكتوراه.

(محظوظ ـــــ جامعة الجزائر)

8- المتميز من كتب النقد الأدبي: دمحمود الربداوي ط 1 مؤسسة الرسالة – بيروت 1981.

9- مفهوم الشعر: دجابر عصفورط 2 دار التنوير للطباعة والنشر- بيروت 1982.

10- تاريخ النقد عند العرب حتى القرن 4هـــ أحمد طه إبراهيم دمشق 1972.

11- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث: د.محمد زكي العشماويدار النهضة العربية- بيروت 1979